الراغب الاصفهاني وجهوده في اللغة

د. حميدا الله*

آثاره اللغوية

نحاول ان نتعرف اولا علي آثار الراغب الأ دبية واللغوية · ولعلها تنحصر في "محاضرات الأدباء" وفي "مجمع البلاغة" وفي "المفردات في ألفاظ القرآن " و لم تخل سائر آثاره من الخبرة العميقة باللغة ومن استخدا مها في الوصول الي الحقائق المبتغاة ـ

اما "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" فلعله أشهر مصنفات الراغب علي وجه الاجمال "فهو خزانة أدب وشعر وحكم وأمثال" كما يذكر أحد البا حثين(١) وخير ممثل لثقافة العصر الذي عاشه الراغب" كما يقول باحث آخر (٢) يقع في خمسة وعشرين بابا· يسمي كل باب حدا· ويتضمن كل باب موضوعات تتفرع عن العنوان الأساسي للباب .

ففي الباب الأ ول وعنوانه" العقل والعلم و الجهل وما يتعلق بهما"يبحث في المو ضوعات التالية العقل وذم اتباع الهوي · وما يحدبه العقل و بنوه والحق وذووه· الحزم والعزم والظن والشك(٣)

وطريقته فى التأليف فيه هى ان يجمع تحت الموضوع الذى عقده ما يناسبه من آيات قرآنية و احاديث نبوية وحكم ماثورة و اشعار مروية و اخبار سائرة و امثال نادرة.

---

* اداره علوم اسلامية جامعة بنجاب، بلاهور

ويبدو ان كلمة "محاضرات" الادباء كانت تعنى مجالسهم وما يطرح فيها من ادب و اخبار.

وقد لقى هذا الكتاب عناية كبيرة فقد ترجم الى اللغات الاوربية(٤) وهذب و شذب(٥) ونشر عدة مرات فى القاهرة وفى بيروت(٦) اما "مجمع البلاغة" فهى المخطوطة التى حققت و ان اغلبها ماخوذة من كتاب "المحاضرات" لذلك فهى تاخذ منهاجه ومادته الى حدما، ولكنها تتميز عنه بغزارة المادة اللغوية فى صيغ الافعال و صيغ الاسماء والتراكيب الادبية · و مابين متشابهاتها من فروق دقيقة.

ففى معنى "الكبر والضعف" يقول: احقوقف و دنف و تاطر و انحنى، و خانته القوى، و خذلته الاركان · وتقوس من الكبر· وبلى كما يبلى الشجر، غيض بصره و اجلاده · ولان اجياده، صادر كعظم الرمة البالى(٧) فالافعال الاربعة الاولى افادت المعنى بنفسها· اما سائر افعال هذا المعنى فلم تتضع الا باكمال التركيب الذى ترد فيه.

وفى جميع المفردات الاسمية التى تنتظم تحت معنى واحد وفى توضيحها ننظر الى المثال التالى، "القرم اكل الصبى والخضر للعقل والخضم للرطب و القضم لليابس، والقطم باطراف الاسنان كالرمان · والكشم والكشد كنحوا لقثاء، والمسغ والمسع كالبطيخ والكشب للحم· والعلك معقود والكش لذوات الحافر(٨).

ان الباحث، حينما يتعمق فى هذه المجموعات اللغوية او الاسراللغوية فى اعمال الراغب، يجد انه لا يبعد كثيرا عن المراحل المتتالية التى قطعتها معاجم المعانى حتى ارتفعت فى كتاب الثعالبى فى الشرق و مخصص ابن سيده فى الغرب(٩).

ففى "القرى" يقول الراغب: المادبة والوليمة والعرس والعذار والنقيعة والوكيرة والعقيقة والوضيمة للدعوات"(١٠) ولدى البحث نجد لهذه الاسرة اللغوية اصلاً فى كتاب "تهذيب الالفاظ· لابن السكيت(١١)

حيث يقول"... والوليمة طعام العرس... والوكرة والوكيرة الطعام الذى يصنعه الرجل عند فراغه من بناء داره فيدعو عليه، والاعذار والعذرة طعام الختان... والنقيعة طعام الاملاك... ويقال لطعام الولادة الخرس والذى تطعمه النفساء الخرسة(١٢).

"يقول فى اصلاح الفاسد: اصلح فاسده وحصد معانده وقوم مائده و لمّ شعثه ورمّ رثّه و منتكثه وآسى كلمه ، حسم الادواء وانضاجه وادمل الجروح بطبه وعلاجه ، رتق الفتوق بعد تفاقمها و استفحالها... نهض الى فتق فرتقه وخرق فرقعه وشعث فلّمه ونشر فضّمه... تالّف النافر، سد مختلّه و اصلح معتلّه...(١٣) ولنتامل معها المجوعه اللغوية الاخرى من الالفاظ الكتابية للهذانى فى باب معنى اصلح الفاسد تقول: لم فلان الشعث وضم النشر ورمّ الرث وسد الثغر ورقع الخرق ورتق الفتق و اصلح الفاسد و اصلح الخلل و جمع الشتات و جبر الوهن"(١٤).

اننا نجد ان لابد من وجود علاقة تاثّر بين المجموعتين، او المجوعة الواحدة فى الكتابين ، على الاصح ، فكما ان الراغب افاد من ترتيب سابقه كذلك شقق التعابير ووسع فيها ، فى اطار المعنى العام الواحد لمختلف التعابير.

وقد صنف فى مثل هذه المجوعات اللفظية قدامة بن جعفر ، ايضا ، كتابافى "جواهر الالفاظ"(١٥)

وقد نجد ان الراغب كان يغتنم فرصة التعبير الغامض فيبادر الى شرحه من خبرته اللغوية ، شرحا معجمياً ، دقيقاً مثل قوله ، اللفف ان يدخل بعض حروف فى بعض ، والعقله ان يعتقل لسانه، واللكنه اذا دخل حروف المعجم منه والحكلة نقص فى آلة الكلام(١٦) وكثيرا ما يرد الكلمات الى معانيها اللغوية الاولى التى استقت منها ، كقوله: كعمه الخوف من الكعام الذى يوضع على انف البعير"(١٧) وقوله: "المخضرم الذى لحق الجاهلية والاسلام (وقيل مخضرم الدولتين لمن لحق بنى امية وبنى

العباس) واصله من لحم مخضرم او من المخضرمة وهى القطعة التى تقطع من اذن الناقة"(١٨).

اما فى المفردات فى الفاظ القرآن من جهود لغوية فاننا نحاول ان نتعرف عليها الآن ، بعدما حاولنا من الاشارة الى ما فى هذا المصنف الكبير من اثر فى التفسير القرآنى ، ولنتعرف على منهجه فى هذا المصنف و على غايته من تصنيفه من مقدمته ، يقول فيها ، وقد استخرت الله فى املاء كتاب مستوفى فيه مفردات الفاظ القرآن على حروف التهجى فتقدم ما اوله الالف ثم الباء على ترتيب حروف المعجم ، معتبرا فيه حروفه الاصلية دون الزائدة ، والإشارة فيه الى المناسبات التى بين الالفاظ المستعارات منها والمشتقات حسبما يحتمل التوسع فى هذا الكتاب(١٩).

اولا: يريد مولفه على الفاظ القرآن لا على معانيها وبذلك يقترب من عملِ المعاجم التى تعنى بشروح الالفاظ.

ثانيا: ينوى ان يرتب هذه الالفاظ باعتبار اوائلها وقفاً لترتيب حروف الهجاء ، الألف مع الباء والألف، ثم الألف مع الباء والباء، ثم الألف مع الباء والتاء ، ثم الالف مع الباء الى... الياء ، وهكذا يفصل بسائر الحروف.

ثالثا: يبدأ بالحروف المجردة للكلمة قبل ان ياخذ فى مزيداتها ، وهى طريقة المعاجم.

رابعاً:يشرح تحت المادة المجردة كل ما اشتق منها وناسبها، اى اقترب من لفظها ، من الالفاظ القرآنية.

ولنختر مادة من مواد هذا المصنف ، لنرى الى اى مدى حقق الراغب عملياً هذا المنهاج ، ولنبحث عما يميز كتابه هذا عن اعمال سائر اللغوين ولتكن مادة حسن.

حسن: الحسن عبارة عن كل مبهج مرغوب فيه · وذلك ثلاثة اضرب، مستحسن من جهة العقل · ومستحن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحسن.

والحسنة يعبر بها عن كل ما يسر من نعمة تنال الانسان فى نفسه وبدنه واحواله· والسيئة تضادها · وهما من الالفاظ المشتركة · كالحيوان الواقع على انواع مختلفة · كالفرس والانسان وغيرهما · فقوله تعالى: ﴿ وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله﴾ (٢٠) اى خصب وسعة وظفر · وان تصبهم سيئة اى جدب وضيق وخيبة · وقال تعالى: ﴿فاذا جائتهم الحسنة قالوا لناهذه ﴾(٢١) وقوله تعالى "ما اصابك من حسنة فمن الله " اى من ثواب "وما اصابك من سيئة" اى من عقاب.

والفرق بين الحسن والحسنة والحسنى ان الحسن يقال فى الاعيان والاحداث · وكذلك الحسنة اذا كانت وصفا · واذا كانت اسما فمتعارفه اى الاحداث · والحسنى لا يقال الا فى احداث دون الاعيان. والحسن اكثر ما يقال فى تعارف العامة فى المستحسن بالبصر· يقال رجل حسن و حسان و امراة حسناء وحسانه · واكثر ماجاء فى القرآن من الحسن فللمستحسن من جهة البصيرة · وقوله تعالى" الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه · اى الأبعد عن الشبهة· كما قال صلى الله عليه وسلم: "اذا شككت فى شئ فدع" وقولوا للناس حسنا· اى كلمة حسنة وقال تعالى: ووصينا الانسان بوالديه حسنا".

وقال الله عزوجل:﴿ قال هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين﴾. وقوله:﴿ ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ ان قيل حكمه حسن لمن يوقن ولمن لا يوقن فلم خص؟ قيل: المقصد الى ظهور حسنه والاطلاع عليه وذلك يظهر لمن تزكى واطلع الى حكمة الله تعالى دون الجهلة · والاحسان · يقال على وجهين · احدهما الانعام على الغير· يقال: احسن الى فلان · والثانى احسن فى فعله · وذلك اذا علم علماً حسناً او عمل

عملاً حسناً وعلى هذا قول امير المؤمنين، رضى الله عنه "الناس ابناء ما يحسنون" اى منسوبون الى ما يعلمون.

وما يعملون عن الافعال الحسنة قوله تعالى:﴿ الذى احسن كل شئ خلقه﴾ والاحسن اعم من الانعام ، قال تعالى:﴿ ان احسنتم احسنتم لانفسكم﴾ وقوله تعالى ﴿ان الله يامر بالعدل والاحسان﴾ ان يعطى اكثر مما عليه ويأخذ اقل ممالـه، فالاحسان زائد عن العدل، فتحرى العدل واجب ، وتحرى الاحسان ندب و تطوع ، وعلى هذا قوله تعالى:﴿ ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن﴾ و قوله عزوجل: ﴿ واداء اليه باحسان﴾ ولذلك عظم الله ثواب المحسنين فقال تعالى:﴿ ان الله يحب المحسنين﴾ وقال تعالى:﴿ ما على المحسنين من سبيل﴾ ، ﴿للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة﴾:

ولدى التامل فى هذا النص قد نلاحظ الملاحظات التالية:

اولاً: ان كتاب المفردات معجم خاص ، وقد توفر على الشرطين الأساسيين اللذين توفرت عليهما سائر المعاجم اللغويه وهما الترتيب والشمول(٢٢) فها هو ذا قدرتب مفردات القرآن الكريم جميعها ، تقريبا حسب حروف الهجاء باعتبار اوائلها ، فمادة "حسب" تسبق حسد" وهما تسبقان مادة خرج وهلم جرا. ونقول هو معجم خاص لانه يختص بما ورد فى القرآن الكريم فقط من مراد لغوية ، وبهذا قد يكون تفرد من بين اصحاب المعاجم الذين سبقوه ، ولعل المعاجم الخاصة لم تظهر الامتاخرة فى اللغات الاجنبية فى لغتنا العربية(٢٣).

ثانياً: ترتيب معجم المفردات على اساس حروف الهجاء من مراعاة اوائل الاصول.

لقد وردت مادة حسن فى هذا المعجم فى نهاية قائمة الحاء والسين وما يثلثهما، حسّ ، حسن، حسد ، حسر ، حسن ، ثم وردت بعد مادتها حشر وما يشتق منها ، وهذا يكون قد نظر الى حرف الحاء مثلا فى

الترتيب ، وهو بذلك يخالف ما عرف قبله من معاجم ترتب المواد حسن مخارج الاصوات او اعتبار الحرف الاخير من المادة كما عرف فى معجم العين للخليل (٣٢١هـ) و تاج اللغة العربية وصحاح العربية للجوهرى(٣٩٣هـ) ويوافق فى طريقته ابن دريد الازدى (٣٢١هـ) فى الجمهرة فى اللغة وابن فارس (٣٩٠هـ) الذى نرجح ان الراغب كان معاصرا له فى معجميه "المجمل" ومقاييس اللغة.

ثالثاً: ثنائية اللغة. ويبدو ان الراغب قد تاثر با بن دريد اكثر من غيره، وذلك اننا لو نظرنا الى قائمة الحاء والسين وما يثلثهما لوجدناه يبدأ فيها بالفعل حسّ ثم ياتى بعده الحاء والسين والباء ، وكذلك فى مادة حض ومادة مر ، اليس يدل هذا على ان الراغب كان يرى ثنائية اللغة وانها اولاً ذات اصول ثنائية؟ وقد كان ابن دريد يقسم اللغة الى ثنائى وثلاثى ورباعى ، وقد لا حظ هذا فى الراغب العالم اللغوى الاب انستاس الكرملى وقال انه تثبث بالثنائية.(٢٤) وذكر باحث آخر ذلك باعجاب قائلاً ان الثنائية سمة اللغات السامية.(٢٥)

ومما قد يساعد على هذا ان الراغب قد افرد للمواد الرباعية ابواب خاصة و لم يلحقها بالثلاثى مثل: عبقر ، وعمس , وشرذم، وسرمد وما ذاك الا انه يوافق رايه فى القول مع القائلين انما الرباعى ثنائى مضعف، فزلزل مثلا من قول و عمس من عس.

رابعاً:الخبرة اللغوية. يبدو ان الراغب يدل بثقافة لغوية عريضة يناقش فيها ما يورد اللغويون قبله بثقة اللغوى واقتدار المفكر ، ففى مادة بعض نراه يقول.

"بعض الشئ جزء منه... ويقال ذلك بمراعاة كل ، ولذلك يقابل به كل فيقال بعضه وكله... قال ابو عبيدة "ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه. اى كل الذى تختلفون فيه كقول الشاعر:

او يعتبط بعض النفوس حمامها

وفى قوله هذا قصور منه . وذلك ان الاشياء على اربعة اضرب: ضرب فى بيانه مفسدة فلا يجوز لصاحب الشريعة ان يبينه كوقت القيامة و وقت الموت، وضرب معقول يمكن للناس ادراكه من غير نبى كمعرفة الله ومعرفته فى خلق السموات والارض . فلا يلزم صاحب الشرع ان يبينه ، الاترى انه كيف احال معرفته على القول فى نحو قوله: قل انظروا ماذا فى السموات والارض "وقوله "تفكروا" وغير ذلك من الآيات . وضرب يمكن الوقوف عليه بمايبينه صاحب الشرع كفروع الاحكام واذا اختلف الناس فى امر غير الذى يختص بالنبى بيانه فهو مخير بين ان يبين وبين ان لا يبين حسب ما يقتضى اجتهاده وحكمته . فاذاً قوله تعالى "لا بين لكم بعض الذى تختلفون فيه" لم يرد به كل ذلك وهذا ظاهر لمن القى العصبية عن نفسه . واما قول الشاعر:

او يعتبط بعض النفوس حمامها

فانه يعنى به نفسه والمعنى الا ان يتدارك منى الموت. لكن عرض و لم يصرح حسبما بنيت عليه جملة الانسان فى الابتعاد من ذكر موته".

بهذه القدرة اللغوية فى فهم النصوص القرآنية والاشعار يناقش الراغب ابا عبيده معمر ابن الثنى احد شيوخ اللغة والنحو فى بداية القرن الثالث الهجرى ، ويظهر خطاء فى ان معنى كلمة "بعض" فى الآية "ولا بين لكم بعض الذى تختلفون فيه" هو "كل" وذلك بفقه شرعى متميز يوضح ما يجوز لصاحب الشرع او للنبى عليه السلام ان يبينه وما لا يجوز له ان يبينه و بالتحاكم الى فهم سليم لنصوص الشعر. فى شطر بيت الشعراء المنسوب الى لبيد حيث يعنى نفسه و لم يعن كل الناس . وننظر الى قوله "وهذا ظاهر لمن القى العصبية عن نفسه" انه يريد ان يقول هذا ظاهر فى كل نظر متجرد عن الهوى و بالنظر الموضوعى . كما نقول فى هذه الايام . ولننظر الى قوله ، حسبما بنيت عليه جملة الانسان فى الابتصار من

ذكر موته اليست نظرة واقعية الى طبائع الناس فى استبعاددكر موتهم ، فى هذه الحياة؟

خامساً: تطور اللغة. ويبدو ان ابا القاسم الراغب لا يتوفر على خبرة لغوية واسعة وعلى فهم دقيق لاسرار هذه اللغة العربية منذ مرحلة النشأة الاولى التى تبدو فى مفرداتها المطلعة على الامور المادية المحسوسة الى مرحلة التطور والتقدم الذى اخذت فيه هذه المفردات دلالات اصطلاحية ومعنوية جديدة ولننظر لذلك ، فيماقال فى كلمة "الفارض".

"والفارض" المسن من البقر ، قال: "لافارض ولا بكر "وقيل ، انما سمى فارضا لكونه فارضا للارض اى قاطعا ، او فارضا لما يعمل من الاعمال الشاقة، وقيل: بل لان فريضة البقر اثنان: تبيع ومسنة فالتبيع يجوز فى حال دون حال، والمسنة يصح بذلها فى كل حال ، فسميت المسنة فارضة لذلك ، فعلى هذا يكون الفارض اسما اسلامياً يريد ان كلمة "فارض بمعنى المسنة من البقر معنى ظهر ، فى اللغة بمجئى الاسلام ، فهى لم تعرف هذا المعنى من قبل ، وقد عرفت بدلالتها المادية فى فرض الارض اى قطعها وتشقيقها فى الحراثة او بما يماثله من الاعمال الزراعية الشاقة.

وبهذا يدل الراغب على تنبهه لمعانى المفردات فى المعنى المادى وفى المعنى الاصطلاحى المعنوى الذى يواكب التطور الحضارى، وهو سبق ارى انه يدل على عقلية متفتحة وسبر للغة العربية نادرين، فكثيرا ما شغل الباحثون فى عصورنا الحافرة عن الالفاظ الاسلامية التى اضفاها الاسلام على العربيه (٢٦).

سادساً: الراغب والمعاجم اللغوية – رأينا ان مفردات الراغب فى الفاظ القرآن معجم خاص بكل ما فى المعاجم من شمول و ترتيب و خبرة لغوية دقيقة . ولذا فإننا لانستغرب إذا وجدنا انه ما من تفسر لكتاب الله العزيز أو متفرغ لمعاجم اللغة يأتى بعد عصر الراغب الذى رجحنا أنه عاش إلى أوائل المائة الخامسة للهجرة ، الايحتاج من هذا المعجم الفريد بصريح

الإشارة إلى المصنف أوصاحبه أو دونما إشارة اما القول بأن معجم" أساس البلاغة " الذى صنعه جار الله ابن محمود الزمخشرى (٥٣٨هـ) فى اللغة · وأنه مقتف لأثر الاغب فى ترتيب مواده اللغوية فهو قول يصح و يجوز · وقديدفعه رأى آخر بأنه تطور طبيعى بدأه ابن دريد الأزدى وسار الآخرون على سنته.

امافى سائر مصنفاته · فإننا نجد الخبرة اللغوية أيضا تتضح فى تناول الراغب كثيرا من مفردات اللغة بالشرح والتوضيح بين المعانى المتقاربة للألفاظ المتباعدة.

فلننظر فى تناوله لكلمة الإبداع فى أحد هذه المصنفات (٢٧) "فالإبداع هو إيجاد الشئ دفعة لاعن موجود ولا ترتيب ولاعن نقص إلى كمال · وليس ذلك الاللبارى تعالى · وإن كانت العرب تستعمل الإبداع فيمن يحضرئبرا فى مكان لم يحضر فيه قبل"(٢٨).

انه يعيد المادة إلى معناها اللغوى الماوى · وفى مصنف آخر. يقفنا على مراحل الكلام بدقة الخبير: " اعلم ان المعنى اذا كان فى النفس فعلم · واذا انتهى إلى الفكر فروية · واذا جرى به اللسان فكلام · واذا كتب باليد فكتابة · فهو بالذات شئ · وتختلف عليه الاسامى بحسب اختلاف الاحوال به · وذلك ان القطن مادام بحالته قطن · فاذا غزل هو غزل · فاذا نسج فثوب · فاذا خيط فقميص او جبة".

انه يبين لنا "حدود" هذه الكلمات التى عند ما تنتهى تبدأ حدود كلمة اخرى. وقد سوغ هذا التقسيم بان الاسماء تختلف باختلاف الاحوال. وضح بمثال القطن الذى يشبه حالات المادة الواحدة الثلاث بين الصلابة والسيولة والغازية.

وفى اثر ثالث للراغب نجد الكثير مما يدل على تسخير اللغة لفهم التشابه من اى القرآن الكريم وما بينهما من الفروق الدقيقة التى تغمض

لدى الكثيرين، ونعنى مخطوطة " درة التاويل فىمتشابه التنزيل" التى يتحدث عنها فى جهود الراغب فى التفسير.

فضا يا لغوية

ويمكن للباحث ان يستخرج رأى الراغب فى مجموعة من القضا يا اللغوية التى تهم الباحثين اليوم.

الترادف: لقد اكثر الراغب من حشد اسرالالفاظ اللغوية من افعال واسماء وتراكيب، كما رائينا فى محاضرات الادباء ومجمع البلاغة بد وافع تعليمية كانت تحفزه الى جمعها بعضها الى جانب بعض ليفيدمنها المتعلمون من ابناء عصره وكان يجمع اى الاسرة الواحدة المفردات التى تتقارب معانيها وتتباين موادها اللغة هل كان ممن يراه ويثبته ام من الذين يرون فيه رايا آخر؟

للاجابة عن هذه السوال نستذكر المثال الذى ساقه لنا قبل قليل عن مراحل الكلام ، حيث قال ، اذا كان المعنى فى النفس فهو علم ، فاذا خرج الى الفكر فهو روية ، واذا جرى به اللسان فهو كلام، وان كتب باليد فكتابة ، فان بين العلم والروية وبين الكلام والكتابة ماقد و ضحه من فرق وحدوده ، وهو فرق فى الدرجة او الحالة ، كما بين القطن فى حالته المختلفه من فروق ، ولنتامل قوله "تختلف عليه الاسامي بحسب اختلاف الاحوال به " اى ان بينها من الفرق الدقيق الذى لا يوجده الا اختلاف الحالات.

كذلك نستذكر سخريته ممن يظنون انهم اذا فسروا قوله تعالى بالحمد لله بالشكر لله فقد فسروا القرآن ، حيث قال فى المكان نفسه انه يريد ان يبين ان قوله تعالى: "لقوم يومنون" وقوله " لقوم يتفكرون" وقوله "افلا تعقلون" مختلف بعضه عن بعض اختلاف ما بين اولى الابصار واولى الالباب واولى النهى(٢٩).

اليس يدل هذا على انه يصر على ان فروقا لا بدقائمة بين هذه المفردات التى يحسب المتسرع انها واحدة فى معانيها، ومع ذلك فاننا نبحث عن امثلة مما طرحه من المجموعات اللغوية.

انه مثلاً يفرق بين مقامات الكلام على النحوالتالى ، فيقول "منابر الخطباء ، ومقامات الشعراء ومجالس الفقهاء ومقراة القرآن ، ومدرسة العلماء ومجمع الاشهار ومجامع القصاص وحلق اهل الذكر ومهبط الوحى ومعدن التلاوة (٣٠) انه هنا وضح لنا الفرق فى هذه المقامات العلمية عن طريق اضافتها لما هى مشهورة به ، ولولا هذا التوضيح بهذه الاضافة لا نبهم علينا الفرق بين المدارس والمجالس والمجامع.

ويقول فى مثال ثان عن "الدرس": القرأة للتحفظ ، ونحوه التلقين و المطارحة ، والالقاء للتعليم ، والتقطيع للعروض ، والتلاوة للقرآن ، والانشاء للاشعار وكذلك الرواية ، والرواية للحديث ، وكذلك السرد، والهذّ اجادة القرأة والاملاء فيما يكتب ، والتفسير والتأويل للغريب ، والتعبير للرؤيا والحل للمشكل (٣١).

انه يقضنا بدقة الخبير اللغوى على مدى ما بين هذه المفردات المتقاربه المعانى المتباينة المبانى من فروق دلالية لئلايظن الظانون ان الواحدة منها تجوز فى مكان الاخرى ، انه يلتقى فى ذلك ، مع قول القائلين بنفى الترادف"لان فى كل واحدة من الالفاظ المتجانسة معنى ليس فى الاخرى(٣٢).

واذا فى مصنفاته الادبية صفحات أكثر وجدنا انه ليسرد بعض مفردات الاسرة الواحدة وان اضافة كقوله "ودّه وصافاه و خالصه وخادنه، وقارنه ، وعاشره ، وسامره، والفه، وحالفه، وصاحبه، وواكبه... وهى افعال فى المحبة و معانى المعاشرة ولكنه فى مجموعات اخرى يوضع الاصل والفرع كقوله "الاثم والفجور(٣٣) كنايات عن الكذب"(٣٤) وقوله "اسرع" اسرع والهب و اهذب ، اماهب و عصف و مطر و طار و

انقض و اضطرم والتهب و ترامى فكنايات عن العدو (٣٥) وليس عبثا قوله"تقول فى وصف سيف: ماض وحسام وصمصام ومهند ، ومخذم...(٣٦) فانه يذكرنابالحكاية التالية التى يسوقها من لا يقبل بالترادف" قال ابو على الفارسى: كنت بمجلس سيف الدوله بحلب وبالحضرة جماعة من اهل اللغة ومنهم ابن خالويه فقال ابن خالويه: احفظ للسيف خمسين اسماء ، فتبسم ابو على وقال: ما أحفظه الا اسما واحدا هو السيف ، قال ابن خالويه: فاين المهند والصارم وكذا وكذا؟ فقال ابو على: هذه صفات"(٣٧).

دفاع عن القوالب الادبية

لقد كثر فى محاضرات الراغب ومجمع بلاغته التراكيب الادبية التى جمعها من ماثور المنثور من تراث الادب العربى حتى عصره، وذلك كقوله فى الكنايات عن الموت ، قرض رباطه ولعق اصبعه ، استوفى كلمه اى استوفى رزقه كناية عن الموت ، جرض بريقه واصفرت انا مله واستاثر الله به ، ونقله الى جواره ، وتوفاه خصه الدهر ، ونقبت عنه المنية ، ولا قى الذى يشعب الفتيان فانشعبا ، اخترمته المخارم ، وحببت نفسه ، ونضب عمره، اعلن اسباب المنية ، ودع الدنيا ، خلى مكانه ، وتهدم عرشه ، وسالت مقامته ، وشرق بدم الوتين اخنى عليه الذى اخنى على بعد ، قامت عليه النوائح ، هوت امه ضمت عليه المقابر... طاقت عقاب المنايا فى سقائفه...الخ(٣٨)

وفى العصر الحديث برز على السنة بعض نقاد الادب ما يقف من هذه القوالب الادبية ، فى الكتاب الفنية ، موقفا مغايراً فهى عندهم دلائل صنعه لفظية ظلت تخنق الا بداع فى النشرو قرونا من الزمان ، بما فيها من اشكال ادبية تشبه " الكليشهات " القديمة التى تفرض نفسها على الاسلوب الحديث ، فان بعض هذه التراكيب قد اصحبت متبذلة لكثرة ترديد الاجيال لها ، حتى صارت تفقد معناها من كثرة الاستعمال ،

فحصل يعرف الناس المعنى الحقيقى لقولهم "دفع عقيرته"، وقولهم " نسج على منواله" وقولهم ، " الشمس فى كبد السماء كدرهم"؟(٣٩)

وقد لا حظ احد الباحثين ان بعض هذه التعبيرات قد اصبح متبذلا اما لكثرة الاستعمال كقولهم ، "شط المزار" مثلا ، واما لتغير العصور كوصف العاشق لفتاته بانها واضحة الانياب واما لعدم الوقوف على المناسبات الاولى لاطلاقها كقولهم"، "دفع عقيرته"(٤٠) ولا حظ ايضا ان ثمة تعبيرات لا يمكن الاستغناء عنها وعن ترديدها من مثل الكلمات الواضحة الدلالة التى اكتسبت عراقة الدوام مثل اسر الصبا وحروف الدهر و مثل الصفات الغالبة الباقيه العقاب الكاسر ، والبرج الشاهق ومن مثل تشبيهات الشعراء المتصلة بالعواطف الانسانية الباقية مع الانسان (٤١).

ان الباحث حينما ينظر فى هذه الدعاوى يجد ان الدوافع الى هجر هذه التراكيب هو سيطرة الصنعة اللفظية على الكتابة منذ عهود القاضى الفاضل و الحريرى ، بما فيها من ايثار للشكل و غرام بتزويق الالفاظ. دونها احتفال بما تحتها من معان ولكن ما يمكن ان يكون متبعا للقديم ، فى عصر من عصور ، لا ينبغى ان يكون سبباً فى الازراء بكل ماخلفته جميع العصور من هذا اللون الادبى ، فليست عصور النثر الفنى متصفة باسرها بهذه الصفة ، فلنبحث عن نثر فنى ظهر فى جيل و كان كبير التاثير فى الناس ، فى عصره و لم يزل ذا تاثير مماثل الى ايامنا هذا . و اول ما يخطر فى البال فى هذا الصدد الاسلوب القرآنى المعجز الذى تكفل الله، جل و علا ، بحفظه ما دامت السموات والارض ، ثم اتت من بعد ذلك عهود على النثر الفنى كان رفيع القدر عالى التاثير فى آثار كتاب العصر العباسى الاول الكثيرين ، افهل كان نثر الجاحظ والتوحيدى و ابن العميد مطلقاً من القوالب اللفظية ؟ ولماذا جهد ابن السكيت والهمذانى و قدامة بن جعفر فى التاليف فى هذه القوالب و تدوينها و جمها فى اسر و

مجموعات ؟ الم يقدم هولاء للغة والامة التراث خدمات جليلة فيما كانوا يرمون اليه من اهداف تعليمية يتمنون ان ينشاء عليها شداة الادب فى عصر تشعبت فيه آثار الشعوبية و فشا فيه آثار اللحن . ثم ان كان هذا يصدق فى العصر العباسى الاول افلا يصدق على ابناء العربية اليوم؟ فى زمن اصبحت اللغة العربية تزاحمها اللهجات المحلية والعامية والركاكة والاساليب المستهجنة؟

ان الحفاظ على اللغة بما فيها من تراكيب و دلالات يقع على عاتق ابنائها ،فهى من مسؤليتهم القومية والدينية والحضارية قبل ان تكون تراكيب وقوالب ، فاذا شاءوا ان يقفوا وراء هذه اللغة ابقوا فيها الحياة. اليس المعقول عليه فى هذه التعابير هو ان تعيش فى انفس قائليها كما قال احد الباحثين(٤٢).

الاشتقاق

عندما اراد الراغب ان يشرح فى " مفردات الفاظ القرآن" مادة حسن و مشتقاتها عرف الحسن بالبهجة المرغوبه . وبعد هذا التعريف العام " للحسن" شرح فى توضيح المعنى الخاص لكل جواد المشتقة من الحسن مثل الحسنة و الحسن والحسنى واحسن والحسنين والاحسان.

و بهذا ترى ان الراغب قد تاثر بابن دريد فى " جمهرة اللغة " فى الاخذ بنظرية الاشتقاق، وحينما توقف عند المعنى العام لاصل المشتقات ، حيث تلتقى جميعها ، وبعد ان شرح المعنى العام معنى يوضح ما تختص سائر مفرداته.

يقول ابن جنى فى تعريف هذا اللون من الاشتقاق ، ويسميه الاشتقاق الصغير ، فالصغير ، ما فى ايدى الناس وكتبهم ، كان تاخذ اصلا من الأصول فتقراءه فتجمع بين معانيه وان اختلفت صيغة ومبانيه، ذلك

كتركيب " سلم" فانك تاخذ من معنى السلامة فى تعريفه نحو سلم و يسلم ويسالم وسلمان و سلمى و السلامة والسليم: اللديغ اطلق عليه تفاؤلاً بالسلامة(٤٣).

ومثله قد انطلق الراغب من معنى "الحسن" الذى هوالابتهاج والرغبة ، ليحدد ، بعد هذا المعنى العام ، المعانى الخاصة فى الحسنة والحسن والحسنى ... الخ تبعا لما تضيفه اوزانها الصرفية على المعنى الاساسى.

و يبدو ان ابا القاسم الراغب قد عرف ايضا لونا آخر من الوان الاشتقاق.

فالاشتقاق"هو اخذ كلمة من كلمة او اكثر مع تناسب بينهما فى اللفظ والمعنى واشمل تقسيم لانواع الاشتقاق ما قسمه احد الباحثين وهو:

١- الاشتقاق الصغير ، ومنه المشتقات السبع المشهورة: كاسم الفاعل ، اسم المفعول ، واسم المرة ، والهيئة ، والزمان والمكان ، واسم التفضيل.

٢- الاشتقاق الكبير ، وهو انتزاع كلمة من اخرى بتغيير فى بعض احرفها مع تشابه بينهما فى المعنى ، واتفاق الا حرف الثابتة وفى مخارج الحروف المتغيرة ، وذلك نحو جثا وحذا ، وبعثر و بحثر.

٣- الاشتقاق الكبار ، وهو ما أسماه ابن جنى الكبير او الاكبر مثل ملك و تقلباتها.

٤- الاشتقاق الكبّار ، بتشديد الباء وهو المعروف عند اللغويين بالنحت كالدمعزة من دام عزك و عن الاشتقاق الكبار يقول ابن جنى:

واما الاشتقاق الاكبر : فهو ان تاخذ اصلا من الاصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وان تباعد شئ من ذلك عنه رد بلطف

الصنعة والتاويل اليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التراكيب الواحد (مثل اصل كلم الذى يوخذ منه كمل وملك ، وكلم ولمك(٤٤).

ويمثل هذا اللغوى الكبير على ما يقول بمادة جبر التى تعنى اصلا القوةوالشدة وما يظل قريباً من معناها هذا من تقاليبها الستة: الجبر والبرج، و الجراب والمجرّب.

وهذا اللون من الاشتقاق الذى شهر به ابن جنى واستاذه ابو على الفارسى، والذى يقول احدالباحثين انه يدل على تطور لغوى جيد ، هوالذى قلنا ان الراغب قد عرفه.

ففى مادة "فكر" فى المفردات يقول:

رجل فكّير كثير الفكرة قال بعض الادباء: "الفكر مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر فى المعانى ، وهو ترك الامور وبحثها طلباً للوصول الى حقيقتها".

وفى مادة "وجه" يقول الراغب: وقال بعضهم: "الجاه مقلوب عن الوجه" وفى مادة فسر يقول الراغب:

"الفسر والسفر يتقارب معنا هما كتقارب لفظيهما ، لكن جعل الفسر لاظهار المعنى المعقول ومنه قيل لما ينبئ عن البول تسفره وسمى بها قارورة الماء ، وجعل السفر لابراز الاعيان للابصار ، فقيل سفرت المراة عن وجهها وأسفر الصبح".

تلاحظ فى هذا النص قوله عن "الفسر والسفر يتقارب معنا هما لتقارب لفظيهما" وهو ما يريده الاشتقاقيون بالاشتقاق الكبير.

وننظر فى مثال آخر وهو يعرض لانواع الاكل ، وقد عرضنا له من قبل ايضاً يقول "القرم اكل الصبى ، والخضدر للبقل ، والخضم للرطب، والقضم لليابس ، والقطم باطراف الاسنان كالرمان ، والكشم والكشذ لنحو القثاء ، والمسغ والمسع كالبطيخ".

الا نلاحظ علاقة لفظية ومعنوية بين الخضد والخضم ، وبين الخضم والقضم والقطم ، وبين الكشذ والكشم ، وبين المسغ والمسع؟ انني احسب ان الراغب لم يرتب هذه الازواج اللفظية وهذه المفردات المتقاربة الالفاظ المباني عبثا وما احسبه حينما قال"احد الادباء" الا يعنى فى العلاقة بين فكروفرك، الا احد اثنين هما ابن جنى و ابن على الفارسى.

ولا حاجة بنا الى ان نمثل على اثر الاشتقاق فى تنمية الفاظ اللغة على مر العصور ، وعلى اثر الراغب الاصفهانى فى هذه التنمية.

وصلى الله على النبى وآله وسلم

الهوامش

١- جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣

٢- عمر فروخ ، تاريخ الادب العربى ، ٣/٢١٤

٣- الاصفهانى، محاضرات الأدباء ، طبعة دار مكتبة الحياة ١٩٦٠م فى مجلدين

٤- نشره ابراهيم زيدان عام ١٩٠٢م مختصرا ، ونشره انور الجندى عام فى مجلدين ١٩٦٠ مختصرا...

٥- طبع عام ١٢٨٤ بطبعة بولاق ، و عام ١٢٨٧ ، المطبعة العثمانية، ١٣٢٦هـ المطبعة العامرة.

٦- طبعةنار مكتبة الحياة ١٩٦٠ فى مجلدين.

٧- مجمع البلاغة ، ص ٢٤١.

٨- مجمع البلاغة ، ص ٣٨٥.

٩- راجع لذلك المعجم العربى ، نشاته و تطوره ، د. حسين نصار، وحركة التاليف، امجد الطرابلى.

١٠- مجمع البلاغة ، ٣٩٢

١١- حققنه له لويس شيخو بيروت ١٨٩٥

١٢- المصدر السابق ، ص ٦١٤

١٣- مجمع البلاغه ص ١٧٥

١٤- من فصل من فصول الباب الاول من الالفاظ الكتابة لعبد الرحمن الهمذانى، حققنه لويس شخو.

١٥- تحقيق محى الدين عبدالحميد ، القاهره ، ١٩٣٤

١٦- مجمع البلاغة ، ص ٥٧

١٧- مجمع البلاغة ، ص ١٩٣

١٨- مجمع البلاغة ، ص ٥٣

١٩- طبع بعناية محمد سيد كيلانى

٢٠- النساء/٧٨

٢١- الاعراف /١٣١

٢٢- راجع لذلك حركته التاليف عندالعرب و ابجد الطرابل و المعجم العربى نشأته وتطوره د. حسين نصر

٢٣- لم تعرف فى لغتنا الاحديثا معجم المصطحات الزراعية ، والمعاجم الطبيعية والفلسفيه والاجتماعية مثلة.

٢٤- راجع لذلك دراسات فى فقه اللغة د. صبحى صالح ص ١٦٢

٢٥- المرجع السابق ، ١٦٤.

٢٦- ولنلاحظ استخدامه لكلمة الفريضة فى قوله " فريضة البقر اثنان" وهو تركيز على المعنى اللغوى لها ، جاء فى القاموس المحيط، ان الفريضة ما فرض فى السائمة من الصدقه".

٢٧- الذريعة الى مكارم الشريعة ، ص ٢١٩

٢٨- مخطوطة تحقيق البيان ، ورقة رقم ٩

٢٩- مقدمة مفردات الفاظ القرآن ، للراغب

٣٠- مجمع البلاغة ، ص ٧١
٣١- مجمع البلاغة ، ص٧٧
٣٢- دراسات فى فقه اللغة ، د. صبحى الصالح ، ٣٤٣
٣٣- مجمع البلاغة ، ص٣٠٧
٣٤- مجمع البلاغة ، ص٨٢
٣٥- مجمع البلاغة ، ص٨٣
٣٦- مجمع البلاغة ، ص٣٠٠
٣٧- المزهر للسيوطى٣/٤٠٢ ، دراسات فى فقه اللغة، ٣٤٦-٣٤٧
٣٨- مجمع البلاغة ، ص ٤٩٩
٣٩- زكى مبارك ، النثر الفنى ، ١/١٨٠
٤٠- نفس المرجع
٤١- نفس المرجع
٤٢- زكى مبارك ، النثر الفنى ، فى القرن الرابع ١/١١٠
٤٣- عن كتاب "فقه اللغة" د. طه عبدالحميد ، مصر ، ١٩٧٠، ٢/١٥٢-
٤٤- "فقه اللغة" عبدالحميد طه ، مطبعة دار التاليف ، مصر ، ٢/١٥٢-

****